تولستوي

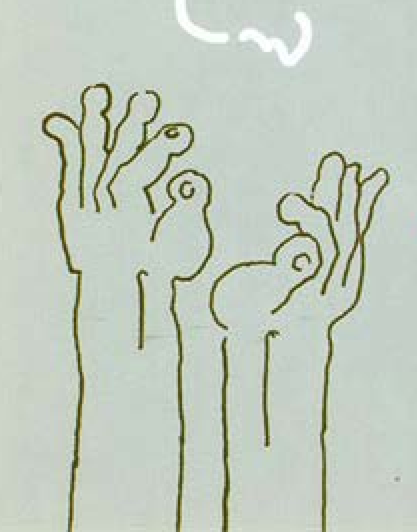


ترجمة

سليم قبعين

مراجعة وتقديم

د. محمد سعيد الطريحي





حِكَمْ النبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

اسم الكتاب: حكم النبي محمد (ص)

اسم المؤلف: تولستوي

١٠٠٠/٢٠٠٩م. ١٤٢٩هـ



سورية . دمشق. ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣٢٢٥٤٠ ١١ ٩٦٣ +

هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣ +

مستودع: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣ +

موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail:ninawa@scs-net.org
ninawa@ninawa.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج والطباعة

وتصميم الغلاف في مطبعة دار نينوى

القسم الفني دمشق. سوريا

القياس ١٤,٥ ◆ ٢١,٥

عدد الصفحات: ٨٠

لوحة الغلاف: د. محمد غنوم

تولستوي

(١٨٢٨ - ١٩١٠م)

حكم النبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

تعريب

سهى الطريحي

مراجعة وتقديم

محمد سعيد الطريحي





كلمة للمعرب

الرجل العظيم يحترم الرجل العظيم، والنفوس الفياضة تصبو إلى نظرائها.

عرف قراء اللغة العربية ما اتصف به الفيلسوف الكونت لاون تولستوي من الجرأة، ودفاعه عن الحق الصراح، دون أن يخشى لومة لائم، أو نقمة ناقم، حتى كان يخاطب قيصر روسيا ورجال حكومته، مبيناً لهم حالة الرعية والبلاد وما تحتاج إليه من الإصلاحات التي غفلوا عنها، والواقف على نظامات روسيا وأحكامها المطلقة، لا يسعه إلا أن يعجب بتلك الشجاعة الأدبية الكامنة في جوانح الفيلسوف، وعدم رهبته تلك السلطة المطلقة.

رأى الفيلسوف تحامل جمعيات المبشرين، في قازان من أعمال روسيا، على الدين الإسلامي، ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية، أموراً تنافي الحقيقة، تصور للروسيين تلك الديانة، وأعمال صاحب تلك الشريعة، بصورة غير صورتها الحقيقية، فهزته الغيرة على

الحق إلى وضع رسالة صغيرة، اختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبي محمد عليه السلام ذكرها بعد مقدمة جليلة الشأن واضحة البرهان، وقال:

(هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية وهي عبارة عن حكم عالية ومواعظ سامية، تقود الإنسان إلى سواء السبيل، ولا تقل في شيء عن تعاليم الديانة المسيحية).

ووعد بأنه سيضع كتاباً كبيراً يبحث فيه أبحاثاً إضافية عن صاحب الشريعة الإسلامية بعنوان (محمد).

ولما اطلعت على هذه الرسالة راقني ما جاء فيها من الحقائق الباهرة، والمقاصد الشريفة، فدفعتني الغيرة على الحق، لنقلها إلى اللغة العربية، وقد عانيت المشاق في رد الأحاديث إلى أصولها العربية التي وردت فيها، وإني أرجو أن تصادف خدمتي هذه القبول الحسن عند عامة المسلمين، وهذا ما أتوخاه في هذه الهدية التي أزفها للشرقيين عموماً، وذلك حسبي وكفى.

تقديم

عرّب المرحوم سليم قبعين هذه المقالة المختصرة للكاتب الشهير تولستوي والمتضمنة لـ (٥٦) حديثاً اختارها تولستوي من الحديث النبوي الشريف، وقد طبع المقال مضافاً إليه أشياء أخرى لها علاقة بروسيا ووضع المسلمين فيها وفي اليابان، ضمن كتيب بعنوان (حكم النبي محمد (ص)) والطبعة التي بين يدي صدرت عن المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م، ولما كانت نسخها نادرة بادرت لنشرها من جديد وعرّفت بها من خلال بعض المواقع الإعلامية خاصة بعد ازدياد الهجمة البائسة ضد النبي (ص) وقد اقتصرت على نشر المقالة وحذفت ما نقله المعرّب مما لا صلة له بمقالة تولستوي، ومن ذلك ما نقله عن إحدى المجلات الروسية تحت عنوان (النبي محمد) إذ لم يذكر اسم المجلة ولا أي تفاصيل عنها، كما حذفت النبذة التي ذكرها عن المسلمين في روسيا ثم عن الشريعة الإسلامية في المحاكم الأوروبية التي نقلها عن جريدة المؤيد، ومع سطور أخرى كتبها عن الإسلام في اليابان، وعلى كل حال ركزت على ما عربه عن (تولستوي) فقط ووضعت في البداية ترجمة وافية (لتولستوي)

تضمنت حياته ونشأته وفكره وفلسفته وصلته بالأمم الشرقية والإسلامية وتعلقه بالحضارة العربية وصلاته ببعض الشخصيات العربية، وهذه المعلومات مستقاة من مراجع هامة ذكرتها في نهاية الترجمة، كما وضعتُ ترجمة لمترجم المقال اعترافاً بفضله ودوره الرائد في ترجمة هذا المقال رحمة الله الواسعة على روح الكاتب والمترجم والقارئ المنصف المتطلع للعلم والمعرفة، والواقع أن تولستوي ينتمي إلى أقلية ضئيلة أنصفت (الإسلام) في عصر فريد في سماته هو عصر القمع الفكري الذي ما تزال بقاياه في هذه الزاوية أو تلك رافضة للفكر وباغضة للمنطق وخائفة من العقل المتسق، فتحية للمفكر العقلاني والكاتب الروسي العظيم تولستوي الذي أمتعنا بكتبه الكثيرة وجلّها مترجم للعربية، كما فرض احترامنا له على تعاطفه وحبه لنبي الرحمة المهداة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

نرجو أن ينتفع بهذه المقالة المحايدة كل إنسان، والله ولي التوفيق.

هولندا

محمد سعيد الطريحي

تـولـستوي

حياتـه وآراؤه وفلـسفتـه (١٨٢٨ – ١٩١٠م)

هو الكونت ليف نيقولايفتش تولستوي، الكاتب الروسي العظيم الذي قضى حياته في البحث عن أصالة الروح والفكر وتأثر في حكمة الشرق وأثر في المجتمعات العالمية، وينحدر نسبه القريب إلى الكونت بطرس تولستوي صديق بطرس الأكبر قيصر روسيا المتوفى سنة ١٧٢٥م، ومن معاصري صاحب الترجمة من أهله الكونت ديمتري طولستوي ناظر المعارف العمومية في روسيا (١٨٦٦ – ١٨٨٠) اشتهر بدفاعه عن السلطة الاستبدادية ومحاربة الحرية، والكونت الكسيس تولستوي (١٨١٧ – ١٨٧٣) من كتبه الروايات التمثيلية اشتهر برواياته المحزنة عن موت إيفان الهائل والقيصر فيودور والقيصر بوريس.

أما الكونت ليف (ويكتب أيضاً ليوف أو ليون) نيقولايفتش تولستوي فقد ولد في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٢٨ في قرية ياسنايا بوليانا في ولاية طولا من أعمال روسيا، ووالدته من أسرة عريقة في الحسب

والشرف تعرف بأسرة فولكون، وكانت تلك القرية ملكاً لها فإقامته فيها لكنها توفيت وهو طفل، فعهد بتربيته إلى السيدة تاتيانا من ذوات قرابته، وانتقل به والده إلى مدينة موسكو فتوفي هناك سنة ١٨٣٧ بعد أن أوصى بأهله السيدة بوشكوفا فعادت به إلى ياسنايا بوليانا وأخذت في تعليمه، فلما بلغ الخامسة عشرة انتقلت به إلى قازان، فأقام في جامعتها سنتين (١٨٤٣ – ١٨٤٥) للتفقه في العلم، وكان في جملة دروسه هناك اللغات الشرقية ثم عاد إلى ياسنايا ولم يتمكن من العلم كما ينبغي، وهو ينسب ذلك إلى نفوره من فساد أخلاق التلاميذ حتى اضطر إلى ترك المدرسة قبل أن يتم علمه.

فلما عاد إلى قريته أراد أن يعوض ذلك النقص وكان قد أخذ في مطالعة مؤلفات مشاهير الأدباء من الروسيين والفرنساويين، وديكنس وبريسكوت وستارن من الإنكليز، وبوشكين وترجنيف ولبرمنتوف من الروسيين، وشيلر وغوته من الألمانيين، واطلع على الياذة هوميروس واوذيسته وعلى فلسفة أفلاطون، وكان شديد الشغف بما يطالعه من آراء أولئك الأدباء والشعراء والفلاسفة لكنه كان أشد تعلقاً بروسو مما بسواه، فقرأ له الاعتراف (Confession) و(اميل) و(هلويز الجديدة) وقد شغف بالمؤلف حتى علق صورته تعويذة في عنقه وهو في الخامسة عشرة من عمره.

وأخذت الاعتبارات الفلسفية تعترض أفكاره من صبوته – شأن الأذكياء في مقتبل أعمارهم إذا طلقوا لتصورهم العنان، فكان همّ تولستوي في أوائل شبابه التفكير في ما هو الإنسان ومن أين أتى وإلى أين يصير وما هي السعادة وما هي علاقة الأسباب بعضها ببعض،

وخطر له مرة مصير الإنسان إلى الموت آجلاً أو عاجلاً فرأى الحياة لا تستحق الاهتمام فعمد إلى الاشتغال باللذات حيناً وكف عن الدرس ثم عاد إليه، وكانت تتمثل له أحوال الحياة ومصيرها في كل حركة يأتيها أو خطوة يخطوها، وغلب على اعتقاده مرة مذهب الوهميين القائلين (ليس في الوجود غير العقل والتصور) ثم عدل عنه إلى غيره فغيره، وكان يباحث أقرانه في ذلك ويباحثونه ويقضي الساعات والأيام في المناقشات والمجادلات.

اتخذ تولستوي بوليانا وطناً له واستولى على حقه من إرث أبويه، وجعل يتردد إلى موسكو وبطرسبرج من حين إلى آخر يقضي فيها أياماً، وكان له شقيق أكبر منه سناً قد انتظم في الجند الروسي ببلاد القوقاس جاءه سنة ١٨٥١ وحَسَّنَ له التجند ورغبه فيه فرافقه إلى القوقاس فأعجب بمناظرها الطبيعية ورأى ضباط الجند في راحة ورفاه، فأطاع شقيقه وتجند في جملة الضباط وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وكأن انتقاله من بيئة إلى أخرى أثار قريحته ووسع خياله، فألف وهو هناك رواية (القوزاق) وصف بها تلك الطائفة من الجند وصفاً دقيقاً، ورواية (الفتوة والشبيبة) وصف بها نفسه وعواطفه وأودعها نصائح للأمهات والآباء.

وانتشبت حرب القرم سنة ١٨٥٣ فانتقل تولستوي في جملة فرقته إلى الطونة وانضم إلى أركان حرب البرنس غورتشاكوف، ثم انتقل إلى حامية سباستبول قائداً لفرقة مدفعية، وشهد معارك سنة ١٨٥٥ ورأى قنابل الجنود المتحدة تقع على ذلك الحصن ولم يكن يعبأ بالأهوال حتى ألقى نفسه مراراً في أشد الأخطار للدفاع عن وطنه،

وقد وصف ما شاهده وكابده في رواية سماها (سباستبول في ديسمبر ومايو وأغسطس) ولما انقضت الحرب وعقد الصلح استقال من تلك الخدمة وانقطع إلى الاشتغال بالأدب.

عاد تولستوي بعد انقضاء الحرب إلى قريته وقد تغيّر نظره في الوجود بعد أن شاهد فظاعة الحرب وعواقبها وكيف أن الحكومات تسوغها وتدعو إليها، فقام في ذهنه من ذلك الحين انتقاد نظام الحكومة ثم تدرج إلى النقمة على الحكومة مطلقاً كما ستراه، فاقام بضع سنوات يتردد بين موسكو وبطرسبورج يكتب ويباحث فألف عدة روايات وصف فيها ما خبره من قبائح الحرب أشهرها رواية (الضابطان) و(ألبرت وليوتسرن) و(سعادة العائلة) و(بوليكوشك) و(الحرب والسلم) ظهرت سنة ١٨٦٠ ووصف بهذه الرواية حالة الطبقة العليا من الروسيين.

وساح سنة ١٨٦١ في بعض أنحاء أوروبا ثم عاد فاستقر في قريته ياسنايا بوليانا وقد عينته الحكومة قاضياً فيها فأخذ يدعو الناس إلى السلام والفضيلة بالتعليم والقدوة، ونظراً لمنزلته من الشرف والثروة كان الناس يعجبون بتنازله ويستأنسون بدعَتهِ ولطفه وأكثرهم من الفلاحين فإذا وقع بينهم خلاف تقاضوا إليه وارتضوا بحكمه وهو يرى أنه ينجيهم بذلك من ظلم الحكام.

وأنشأ في قريته مدرسة ينفق عليها من جيبه لتعليم أبناء الفلاحين ويتولى تعليمهم بنفسه ويبث فيهم روحاً جديدة، فاشتهرت هذه المدرسة في روسيا وقصدها أهل المدائن حتى المتخرجين في كليات بطرسبورج وغيرها يلتمسون الاستفادة من آراء تولستوي وفلسفته، فزادوه رغبة في

ذلك فأنشأ لهم مجلة تهذيبية دعاها باسم قريته ينشر فيها مقالات تهذيبية لتقويم الأخلاق والتشجيع على الكتابة.

واقترن سنة ١٨٦٢ بالسيدة صوفيا ابنة الدكتور بيرس الألماني وكان يقيم في موسكو فاضطر تولستوي بعد زواجه أن يداول السكنى بينها وبين قريته، وهو يشتغل بتأليف الروايات الإصلاحية ونشرها ومن أشهرها رواية (حنة كرانينا) ظهرت سنة ١٨٧٠ وذاع ذكر هذه الرواية ورواية (الحرب والسلام) في أوروبا فجعلتا لمؤلفهما منزلة عظيمة في نظر الأدباء هناك، ونقلتا إلى أكثر لغات الأفرنج وكان رواجهما عظيماً، فازداد رغبة في نشر أفكاره فألف كتباً أخرى في مواضيع تهذيبية رأى الشعب الروسي في حاجة إليها كروايات (القيامة) و(البعث) و(أين المخرج) و(الحب والزواج) وغيرها وهي منقولة إلى معظم لغات أوروبا وبعضها نقل إلى العربية.

وهو في ذلك طرأ عليه رأي اشتراكي اشتهر به وبنى عليه فلسفته سنأتي على بيانه، فاقتضى ذلك الرأي أن ينبذ تولستوي الاستئثار بالملك الشخصي فقسم أملاكه بين فلاحيه وصار يشتغل هو فيها كواحد منهم، والقول بتقسيم الأرضين على هذه الصورة ليس من مبتدعاته فقد ذهب إليه جماعة من الاشتراكيين – لكنه يمتاز عنهم جميعاً بأنه أخرج ذلك الفكر إلى حيّز العمل فباشره بنفسه وفي ملكه، فكان لعمله هذا دويٌّ في العالم المتمدن، وصرح في أثناء ذلك باعتقادٍ له في الدين خالف به تعاليم الكنيسة وألف كتباً ترمي إلى هذا الغرض وغيره من أغراضه التهذيبية الفلسفية، ومن جملة تلك الكتب كتاب (ما هو ديني) نشر في نوفل وفي و(مسيحية المسيح)

ترجمت إلى الإنكليزية سنة ١٨٨٥ وأكثرها لم يؤذن بطبعه في روسيا فكان الناس يتناقلوها خطاً

فشق ذلك على رجال الكنيسة والحكومة معاً وناقشوه وانتقدوه واجتهدوا في رده فلم يفلحوا فأصدر المجمع المقدس منشوراً حرمه به من عضوية الكنيسة الأرثوذكسية وقد أسند الحرم إلى مقاومته تعاليم الكنيسة وإنكاره نزول السيد المسيح لفداء العالم وأنه حبل به بلا دنس وقام من بين الأموات، فضلاً عن تذبذبه في أمر العقاب والثواب بعد الموت وسائر أسرار الكنيسة.

وكان لذلك الحرم وقع شديد في بلاد الروس واعترضت امرأة تولستوي عليه برسالة كتبت بها إلى رئيس المجمع المقدس وظهر من فحوى رسالتها أنها على رأي زوجها، فرد عليها الرئيس يبين صواب عمل المجمع. ثم كتب الكونت دفاعاً عن نفسه وأجابوه أيضاً وانقسم كتاب الروس في هذا الشأن إلى قسمين ودارت المناقشة فيه زمناً مما يضيق عنه هذا المقام، وكان للحرم تأثير في أذهان العامة حتى أنحوا على الفيلسوف باللعنات والشتائم. أما هو فأصر على آرائه وتعاليمه وما زال يعلم بها على أساليب مختلفة كتابة وشفاهاً، وانقطع عن العالم وأركن إلى المعيشة مع الفلاحين بسذاجة وتقشف يسعى جهده في ترقية عقولهم وبث روح الاشتراكية فيهم.

عيشته اليومية

كان الكونت تولستوي يعيش في قريته على أبسط حال في منزل مؤلف من طبقتين بلا شرفات ولا أروقة حوله غابة كثيفة، كان يقيم

فيه مع زوجته وأولاده ليس فيه من الرياش إلا مقاعد من الخشب وبعض الكراسي من القش وليس على جدرانه إلا بعض صور المشاهير كشكسبير وديكنس وبعض أجداده، كان يقيم هناك كسائر الفلاحين يلبس ثوباً مثل أثوابهم هو عبارة عن سراويل واسعة فوقها كساء كالقميص يتمنطق حوله بسير من جلد، وقد أرسل شعره حتى جلل رأسه ولا يلتفت إلى إصلاحه.

وكان طعامه مثل طعامهم يتناول الشاي في الصباح ويذهب إلى العمل في حرث الأرض وتعهد أشجارها وأعشابها وبذر الحبوب ومساعدة ضعفاء الفلاحين بأعمالهم – لاعتقاده أن مساعدة الفقير في عمل يعمله خير من الإحسان إليه بالمال لأنه يجرّه إلى الكسل، فإذا عاد في المساء تناول الطعام مع أهله في أبسط ما يكون، وليس في ذلك المنزل من دلائل المدنية إلا الكتب على رفوف من الخشب البسيط للمطالعة في ساعات الفراغ.

تلك كانت حاله بالصيف في ياسنايا وبوليانا أما في الشتاء فكان يقيم في موسكو إذ ينقطع عن الأعمال البدنية الشاقة ويتفرغ للأعمال العقلية فيؤلف الكتب ويراسل ويكاتب وقلما يقابل أحداً من الروسيين ولكنه كان يحتفل بمن يأتي لزيارته من الأجانب، واختص نفسه بغرفة من بيته مفروشة بالأثاث البسيط فيها مكتبة ومقعد وطاولة وكراسي بخلاف سائر غرف المنزل فإنها كانت مفروشة بأفخر الرياش لاستقبال الذين يزورون عائلته من علية القوم لأن أهله كانوا عائشين عيشة أشراف الروسيين في البذخ والتأنق، أما هو فكان منفرداً بعيشته يتوخى السذاجة في كل شيء ولا يهمه وهو

هناك إلا الاشتغال بالتأليف كما يكون همه في ياسنايا بوليانا الحراثة وتعليم الفلاحين والناس في أطراف العالم يعجبون بما يسمعونه من أخباره وأطواره.

وفاته

فوجئ الناس برسالة برقية تنبئ بخروج الفيلسوف الشيخ في ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ من ياسنايا بوليانا إلى حيث لا يعلم أحد ولم يصطحب إلا حكيمه الدكتور ماكوفتسكي وتلميذاً من تلاميذه، خرج ليلاً ولم يأخذ من الدراهم إلا ما يكفي للسفر في أقل الدرجات فاهتم أهله بالتفتيش عنه واختلفت الأقوال في غرضه أو السبب الذي بعثه على تلك الرحلة، ثم بلغهم خبر وصوله إلى كوسلسلك بقرب دير رئيسته الكونتس ماريا نيقولايفنا تولستوي.

وهناك أصيب بحمى شديدة قضت على حياته فلما نُمي الخبر إلى أهله احتفلوا بنقله إلى المكان الذي أوصى أن يدفن فيه بغابة افونين قرب ياسنايا بوليانا فحملوه على الأعناق يمشي حوله أهله ومحبوه ومريدوه، وصولا إلى محطة زاسيكا المؤدية إلى قريته وتولى حمله أربعة من أولاده هم سرجيوس وميشال واندريا وإلياس والناس يمشون خلفه وأكثرهم من أصدقائه الفلاحين الذين تقاطروا لحضور جنازته من جهات مختلفة بباقات الأزهار ليس معهم كاهن ولا صليب حتى واروه التراب في حفرة أعدوها له بين أشجار تلك الغابة.

شهرته ومؤلفاته

إن ما أصاب تولستوي من الاضطهاد والحرمان زاد في شهرته فانتشرت آراؤه في أقطار العالم المتمدن وساعد على انتشارها منزلة الرجل من العلم واعتقاد الأمم الأوروبية فساد حكومة القيصر وإغراقها في الاستبداد، وقد نقلت كتبه إلى أكثر لغات أوروبا وغيرها فقرأها أهل القارات الخمس، وأصبح اسم الكونت تولستوي دائراً على ألسنة الخاصة والعامة في المجالس والأندية وفي المنازل، وعده العلماء من أعظم رجال التاريخ، وفَاضَلَ بعضهم بينه وبين فيكتور هوغو وفَضَّلَهُ عليه لأن تولستوي كان لا يزال حياً وكتبه يقرأها مئات الألوف وقد يأتي بأحسن منها، وقابل آخرون بينه وبين نابليون الأول ولنكولن ففضلوه عليهما لتأثير كتبه في نفوس الناس، وقد أجمع الأكثرون على أنه أكتب كتاب الروس بعد ترجنيف — على أن بعضهم عدَّ تعاليمه من قبيل الأوهام التي لا تأتي بفائدة.

مؤلفاته

مؤلفاته أكثرها روايات تهذيبية فلسفية إصلاحية وهي كثيرة ذكرنا معظمها في أثناء الترجمة، ولو أردنا درسها لاقتضى لوصف كل منها فصل خاص فنكتفي بفذلكة إجمالية: فالروايات التي كتبها في أوائل حياته أجاد فيها كل الإجادة بتمثيل الفضائل والرذائل على طريقة أهل الحقيقة (رياليست) فإنه توخى فيها تمثيل الحقيقة في وصف الهيأة الاجتماعية في طبقات الشعب الروسي كما هي تماماً بفضائلها ورذائلها، فإذا قرأت وصفاً تمثل لك الموصوف

كأنك تراه أو تلمسه مع الصراحة والإيضاح، فلما أظهر دعوته الدينية او الفلسفية خامر أسلوبه شيء من التصورات الخيالية ثم صارت عباراته في أواخر أيامه أقرب إلى الخيال الشعري منها إلى الحقيقة.

على أن أسلوبه سهل واضح في كل حال فلما يخطئ القارئ غرضه، حتى في ما نقل من كتبه إلى اللغات الأخرى فإن صورة الفكر ما زالت جلية واضحة، وله مقدرة عظيمة على تصوير أفكاره وبسطها وقد أجاد على الخصوص في وصف الضعف البشري وما يقود إليه من الشقاء والرذائل في رواية حنا كرانينا ولكل كتاب أو رواية مزية خاصة.

على أن كتبه على الإجمال ترمي إلى أربعة أغراض رئيسية:

الأول: وصف أحوال الطبقة العليا في روسيا وهو أول من كتب في هذا الموضوع فكشف الغطاء عما يرتكبه شبانهم الأغنياء من الموبقات والمنكرات وما بلغت إليه حال نسائهم من الانحطاط الأدبي.

الثاني: تمثيل أدوار الحياة وما ينتاب كل دور من أسباب السعادة والشقاء وقد شدد النكير على من يحتقر الرباط العائلي بين الزوجين مع الحث على تربية الأولاد على أيدي أمهاتهم.

الثالث: وصف معيشة الجندي الروسي وما يقاسيه من الشقاء في أثناء الحرب مع تمثيل الحرب وأضرارها وشرورها.

رابعاً: وصف حالة الفلاح الروسي وكيف ينبغي أن يكون ليتخلص من الاستبداد للأشراف والحكومة.

آراؤه وتعاليمه

قد تقدم أن تولستوي من أقدر الناس على بسط أفكاره وتصويرها للقارئ حتى يتفهمها جيداً، وكان أيضاً صريحاً في آرائه وأقواله ولا يقول غير ما يعتقده ولا يستنكف من الاعتراف بالخطأ إذا تبين له وجه الصواب، وإلا فإنه يصر على اعتقاده ولو خالفه فيه أهل الأرض كما سترى مما سنأتي عليه من آرائه في الدين وغيره.

قاعدة إيمانه في الدين

إن اعتقاده الديني ينحصر في الأناجيل الأربعة ولا يعتقد بكل ما جاء فيها وإنما يقتصر على وجهها التعليمي، لأن تعاليم الإنجيل في نظره سامية وأنه إذا عمل بمقتضاها ساد الوفاق وتآخى الناس، وعنده أن الإنسان لا يكفيه أن يكف عن قتل أخيه الإنسان بل لا يسوغ له أن يشكوه أو يغضب منه أو يمتهنه، فإذا وقع في شيء من ذلك رغم إرادته وجب عليه الإسراع في المصالحة قبل أن يقف للصلاة، وأن الإنسان إذا تزوج لا ينبغي له أن يبتعد عن امرأة بطلاق أو غيره، ولا أن يقسم بأنه سيفعل الشيء الفلاني وهو لا يملك شيئاً من مجاري الطبيعة، ولا يحسن به أن يقلع العين بالعين أو السن بالسن بل يجب عليه أن يغضي عن السيئات وأن لا يكره أعداءه بل يحبهم ويأخذ بناصرهم.

أما من حيث الأمور المتعلقة بالإيمان فإنه لا يؤمن بسر الفداء ولا الثالوث الأقدس ولا لاهوت المسيح، أما خلود النفس فاعتقاده فيه يخالف تعاليم الكنيسة، وهاك صورة إيمانه بالخلود (اعتقد بالعالم

الآتي وأن الحياة لا تنتهي بالموت، ولكنني لا أدري ما يكون من أمر هذه الحياة بعد الموت ولا حاجة بي إلى معرفة ذلك) فهو ينكر العقاب والثواب أو يسكت عنهما.

وقد خالف تعاليم الكنيسة في تفسير الفقرة الواردة في أول انجيل يوحنا (في البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) فهو يترجمها (في البدء كانت المعرفة والمعرفة صارت عوض الله ثم صارت المعرفة الله).

وقد بسط تولستوي اعتقاده في رده على المجمع المقدس لما حرمه من الكنيسة وهو (أؤمن أن الله روح ومحبة وأنه في وأنا فيه وأن مشيئته مبينة في تعاليم المسيح الإنسان – ولا أعتقد أنه إله والصلاة له استهزاء به، وسعادة الإنسان تقوم بعمل إرادة المسيح وهي ترجع إلى تبادل المحبة بين الناس وبها يسود ملكوت الله على الأرض فتتطهر من الرذائل، وأن الوسيلة الوحيدة لنشر هذه المحبة الصلاة الانفرادية التي علمنا إياها المسيح بتوجيه الفكر إلى العزة الإلهية).

أما الكنيسة فلا يعتقد أنها كنيسة المسيح كما يرضاها هو بل يقول أنها قد طرأ عليها الفساد وارتكب رؤساؤها ما يخالف تعاليم المسيح.

رأيه في المرأة

لم يكن تولستوي حسن الظن في المرأة حيث قيامها بواجباتها البيتية والمحافظة على أمانتها لزوجها، بل هو يعتقد أنها مثله تسعى في الوصول إلى سواه فإذا استطاعت ذلك فعلت فعله، لأن المحبة بين الزوجين يرى تولستوي بقاءها من رابع المستحيلات قال (قد يكون بين الزوجين حب ولكن إلى أجل قصير وإنما يدوم الحب بينهما في خيالات الشعراء وما ينشرونه في رواياتهم من حوادث العشق، أما في الواقع فإنه لا يدوم وما من متزوج إذا مرت به فتاة جميلة إلا اجتذبت قلبه وبذل وسعه في الوصول إليها).

ويرى أن المرأة قد خرجت عن واجباتها الطبيعية التي خلقت لها فهي عنده لا ينبغي أن تتعاطى شيئاً غير تربية الأولاد والعناية بهم منذ الولادة بالإرضاع والنظافة والوقاية وتثقيف عقولهم وتدريبهم على الفضائل حتى ينشأوا أبناء صالحين لخدمة الإنسانية، ولذلك فهو لا يرى حاجة إلى تعليمها غير القراءة البسيطة لتطالع كتب الدين والآداب التي تثقف النفس وتزجرها عن الآثام، ويأسف لاشتغال بعض النساء في غير الولادة والإرضاع والتربية وقد شدد النكير على ما تتطلبه نساء أميركا وسائر العالم المتمدن من حقوق الرجال أو مجاراتهم في أعمالهم لأن كلا منهما خلق لعمل خاص به لا يمكن للآخر أن يتولاه إلا ويضر بالمجتمع الإنساني.

وله آراء في التربية وغيرها من أسباب المدنية لا محل لها هنا،

فلسفته

إن رأي تولستوي في الوجود وأحوال الإنسان مثل آراء الاشتراكيين المتطرفين فهو يرى نظام الاجتماع فاسداً يحتاج إلى إصلاح، وأن فساده ناجم عن الرئاسات الدينية والسياسية أي في الكنيسة والحكومة، لأن الإنسان في نظره مطبوع على الخير فتحمله الحكومة على القتال لأنها تعلن شرعية الحرب والكنيسة تجره إلى الخصام مع إخوانه في الإنسانية بالتعصبات الدينية، ويرى أن الدواء الوحيد لهذه العلل إنما يكون بنشر العلم والتربية حتى يعرف كل واحد واجباته ويقتنع بوجوب المسألة والاتحاد مع سائر بني نوعه، وقد وضع قاعدتين تغنيان الناس عن الحكومة والكنيسة وعن سائر الرئاسات ويكفيانه مؤونة الخصام والنزاع وهما:

(١) أحبوا بعضكم بعضاً.

(٢) لا تقاوموا الشر بالشر.

صدق الفيلسوف أن هاتين القاعدتين إذا عمل الناس بهما أغنياهم عن الحكومة وكفياهم مؤونة الحروب، على أن القول بذلك قد سبقه إليه الأنبياء كما هو الحال مع السيد المسيح منذ تسعة عشر قرناً وجعله أمراً إلهياً وقد حاول أتباعه ومريدوه العمل به وهم لا يزيدون إلا بعداً عنه لأن النصارى كانوا في أوائل النصرانية أقرب إلى هذه القاعدة ما هم عليه الآن ويدل ذلك على سهولة القول ومشقة العمل به، ولو كان اجتماع الناس على المحبة المتبادلة ومقاومة الشر بالخير ممكناً لظهرت ثماره بعد هذا الدهر الطويل.

وقد وصف تولستوي الطريقة للتخلص من الشقاء الذي صارت إليه الهيئة الاجتماعية بسبب نظامها الحالي، فأشار أولاً بحل الحكومة وإلغاء نظاماتها وحقوقها وامتيازاتها، فتبطل الضرائب وتنقضي المحارم وينجو المظلوم من الظالم ويصير الناس طبقة واحدة لا تفاضل بينهم في شيء ولا مالك فيهم ولا مملوك ولا جند هناك ولا قضاة ولا ولاة ولا ملوك – وهذا في رأيه سهل لا يحتاج إلى أكثر من إجماع الناس كافة عليه!

فإذا حللنا الدولة وألغينا الحكومة تؤلف الناس جماعات أو طوائف بحسب أجناسهم أو لغاتهم أو حال من أحوالهم، وتجعلهم يتعاملون بالمحبة والمودة فيعقدون المعاهدات ويتبادلون المنافع بلا حرب ولا طمع ولا نزاع ويكون أفراد كل طائفة متساوين في الحقوق والواجبات فإذا تعدى أحدهم على الآخر حكم عليه ليس بالقوة كما تفعل حكومات هذا الزمان بل بالرأي العام لأنه أنفذ من سيف الحاكم وصولجان الكاهن.

ويكون الرأي العام يومئذ مبنياً على إرادة الله التي ستقوم في نفوس الناس مقام إرهاب الحكام وغيرهم، وأيسر على الإنسان أن يخضع لإرادة الله من أن يخضع لإنسان مثله!

وهكذا قال في علائق الجماعات أو الطوائف بعضها ببعض إذا اختلفوا في شيء عمدوا إلى ضمائرهم وصدق نياتهم فتحكم بينهم.

كل ذلك جميل وحسن، ما أجمل هذا النظام وما أسعد المستظلين به – لا حرب ولا خصام ولا حسد ولا طمع ولا قتل ولا ضرب ولا ولا...

ولكن هل يكون ذلك؟

نسج الريح على الماء زرد   يا له درعاً منيعاً لو جمد

نعم قد يكون متى صار الناس في درجة واحدة من التعقل وفي قالب واحد من الأخلاق، أو أن يكونوا كلهم فلاسفة كبار العقول مثل تولستوي وأشياعه، لأن سعة الصدر والكف عن الشر مع القدرة عليه والإغضاء عن الإساءة لا يستطيعها إلا كبير العقل واسع الصدر – ولذلك قالوا (إن أعقل الناس أعذرهم للناس) فهل يتيسر أن يصل البشر إلى يوم يكونون فيه كذلك؟   الجواب كلا

ولعله يحسب التعليم والتربية كافيين للحصول على هذه الأمنية لأن الإنسان متى تعلم وتثقف لان خلقه وهان عليه توجيه عواطفه كما يشاء – وهو وهم، إن العلم يثقف العقل ويوسع المعرفة وقد يؤثر على الأخلاق ولكنه لا يغيرها وكثيراً ما يكون تعليم الأشرار وسيلة لزيادة شرورهم إذ يستخدمون علمهم في تنفيذ أغراضهم، والأدلة على ذلك كثيرة نراها كل يوم.. فالتربية لا تساوي الناس بالعقول والأخلاق فلا يمكن أن يجمعوا على اتباع هذه القاعدة، وهب أنهم اقروا على وجوب اتباعها فإنهم لا يصبرون على العمل بها لأنها تخالف طبيعة الإنسان وسائر مجاري الطبيعة ولا يقوى التعليم على الوقوف في طريقها.

فالناس مختلفون في طبائعهم ومطالبهم وفيهم الطامع والقانع والحسود والغيور وغيرهم، فالتفاوت في تلك القوى يوجب الاختلاف بينهم، ويوجبه أيضاً التفاوت في الحصص التي لا يمكن التساوي

بينها ، ثم إذا اغضينا عن ذلك وفرضنا التساوي فيه بين الأفراد ونظرنا في التسوية بين الجماعات فكيف يمكن التساوي بين البقاع التي تقيم فيها — إذ قد يلحق إحدى الجماعات أرض كوادي النيل خصباً وأخرى يلحقها أرض وعرة مجدبة فكيف يرتضون بتلك القسمة.

وناهيك بما ينجم من التباعد بين أحوال هذه الجماعات من حيث الخصب والجدب والثروة والفقر تبعاً للإقليم وسائر المؤتمرات، وكيف مع هذا التفاوت يمكن التوفيق بينها وكيف لا يطمع بعضهم ببعض فتنتشب الحرب وتعود الأرض إلى ما كانت عليه من الخصام والنزاع فتضطر إلى إنشاء الحكومات للإرهاب وإعادة النظام.

إن فلسفة تولستوي نظرية وهمية يلذ سماعها ولكن يستحيل تطبيقها على الواقع (اقرأ تفرح جرب تحزن) ما من عاقل إلا ويرى تبادل المحبة والأغضاء عن السيئات خير وسيلة لسعادة البشر إذا أمكن السير عليها ، وما مثلنا في ذلك إلا مثل ارشميدس إذ قال أعطوني مخلاً طوله كذا وأنا أنقل لكم الأرض.

تلك هي القواعد الأساسية في فلسفة تولستوي وقد رأيت أنها لا تنطبق على الواقع أي العمل بها لإنشاء نظام جديد بدل النظام الحالي، وإن كان انتشارها والتعليم بها يهذب النفوس ويرقي الآداب ويسهل العلائق بين الناس.

وإذا تدبرنا سائر أقواله وآرائه في الوجود والنظم نجد فيها أشياء كثيرة يلذ سماعها ونتمنى الحصول عليها ولكن أكثرها بعيد الاحتمال من حيث تغيير النظام وإن كانت مفيدة من الوجهة

التهذيبية، أو أنها ربما وافقت حالة من أحوال دولة الروس يوم كتبها كأنه ينتقد بها الاستبداد والفساد في حكومة تلك الدولة.

وقد تجد بين آرائه الفلسفية أموراً غريبة تخالف المألوف من قواعد الاجتماع كقوله في تعريف الحرية الحقيقية فهي عنده (أن لا يخضع الإنسان لإنسان آخر) وهي الفوضى التي يستحيل معها تأليف جماعة منظمة وأين السعادة مع هذه الفوضى.

ومن حججه التي يعوّل عليها في إثبات فلسفته عن تأسيس نظام الاجتماع على المحبة قوله (إن الناس إما أن يكونوا عقلاء أو جهلاء فإذا كانوا جهلاء فاستخدام القوة في نيل السيادة لا يجوز حصره في فئة منهم دون الفئة الأخرى، وإن كانوا عقلاء لا ينبغي أن يتعدى بعضهم على بعض بل يتعاملون بالمحبة) وهي سفسطة لأن الفرضين مستحيلان وبينهما القول الفصل أي أن الناس بعضهم عقلاء والبعض الآخر جهلاء فالعاقل يتسلط على غير العاقل أو القوي على الضعيف.

وقد قال (إن التخلص من الخضوع للحكومة يكون بالخضوع لله أي العمل بوصاياه) ويقتضي ذلك طبعاً أن يتعلم الناس تلك الوصايا، فلا بد من الإذعان لمن يعلمها وتصديقه لأن الإنسان لا يولد معلماً، ولا يرجى اتفاق المعلمين في ماهية تلك التعاليم لاختلافهم في المدارك والقوى، فنعود بذلك إلى الانقسامات الدينية أو السلطة الثيوقراطية.

وأغرب من ذلك اعتقاده في جملة تعاليمه (أن الثروة لا ينالها إلا المحتالون الذين ينغمسون في المراباة ويتزلقون للكبراء بالنفاق والفساد) وقد ثبت بالقواعد الاقتصادية والأدبية أن الصدق والأمانة

أساس كل نجاح.

وهو ينكر على الناس تزاحمهم في المدن للجهاد في العمل ويشير عليهم بالسكنى في الحقول والعدول عن المعامل إلى الفلاحة لأن قاعدة الحياة في نظره البساطة والصدق فهو يطلب إلى الناس التقاعد عن الجهاد في سبيل الحياة كأنه يقاوم أهم نواميس النشوء.

ونختم الكلام بغريبة أخرى من غرائبه فقد قال (ما بالنا نرى الأقوياء المجدين في العمل وهم السواد الأعظم من الناس يخضعون لضعاف الأبدان من الشيوخ والعاجزين؟ أليس ذلك لأن أولئك الضعفاء قد امتلكوا الأرض وخيراتها؟ فالحق الذي يمتلك الغني أرضه به ويستحل به تعب ذلك القوي لا ينطبق على مبدأ من مبادئ العدل بل هو اغتصاب تؤيده قوة الأسلحة)، وهل فات فيلسوفنا أن تلك الأراضين لم تصل إلى أولئك الضعفاء إلا بعد أن تعب أجدادهم الأقوياء في نيلها وربما سفكوا دماءهم في سبيلها؟ وقد أفضت إلى أبنائهم بالإرث، فإذا كان هؤلاء غير كفء لاستبقائها ذهبت من أيديهم إلى من يستحقها بحكم الطبع، إلا إذا كان صاحبنا يشير إلى استبداد أناس مخصوصين نالوا ثروتهم بالصدفة عن غير استحقاق فلا يعد قوله قاعدة عامة، وأما القاعدة فهي أن يكون حظ الإنسان من دنياه على قدر مساعيه وقواه، والقوى العقلية مفضلة على القوى البدنية فقد يكون قوي البدن ضعيف العقل فيغلبه ضعيف البدن قوي العقل — ولا غرابة في ذلك.

(آتاركسيا) أو الطمأنينة في فكر تولستوي

(آتاركسيا) كلمة إغريقية تعني (اللاكدر) أو (غياب الهم) تناولها الفلاسفة الأقدمون من الأبيقوريين والرواقيين (الستوئيكيين) وجعلوها قاعدة النعيم على الأرض، ومبدأ السعادة الأساسي، وقد وجد لها العرب ترجمة فلسفية دقيقة في كلمة (طمأنينة).

هذه الطمأنينة في حاجة إلى دراسة مفصلة، وبحث مستفيض، وتأمل يفوق المعتاد في كل حياة أو سيرة، لأنها لا تتحقق إلا بشروط كما شرحاه سينيكا وغيره من قدامى المفكرين.

وأول شروطها الاطلاع الشامل على ما يجري في النفس والكون، إذ لا مكان لانسجام النفس مع الحياة بغير معرفة.

الشرط الثاني الابتعاد عن كل ما هو غير منتظر وغير معقول، وهذا يفيد التخلي عن كل رغبة، والاستعداد لكل مفاجأة بحيث تنتزع منها المفاجأة.

الشرط الثالث والأخير استقلال الإرادة على نحو كامل مطلق، وعند ذاك يمتنع على العالم الخارجي أن يدخل الذات من أي باب أو

نافذة.

هذه الطمأنينة التي تشترط اتخاذ تلك المواقف، وبذل جهود لا يتاح القيام بها، انقلبت على ناشديها من الخاصة والعامة على السواء، إلى ضرب من الاستكانة والرضا بالواقع، ونبذ الطموح، والغلو في الزهد.

غير أنها كانت تتطور كفلسفة ذات إغراء وجاذبية، حتى وصلت إلى القرن التاسع عشر في أوروبا ولها شكل آخر ولع بالعلم، وانحسار للحب الصحيح، وانغماس في المنفعة واللذة، وتجسيد للأنانية، وتوثب للقوة والسيطرة.

نشأ تولستوي، ومناخ أوروبا الروحي كله مشبع بحروب نابليون، وإخفاق المبدأ الثوري، وانتشار الرومانطيقية على أوسع مدى – نشأ مترفاً منعماً يلهو، ويلعب، ويرتع، ويمارس الصيد، ويخالط البطّالين من كل جنس ولون، ولكن (الحاجة) إلى الحب النقي في جانب وفكرة (الحقيقة) في جانب آخر، أخذتا تستوليان على نفسه شيئاً فشيئاً، وتصرفاته على نحو خفي، في منتهى الخفاء إلى التفكير.

ونشدان الحب كنشدان الحقيقة، يتنافى مع الطمأنينة، فإذا سعيت في طلب الحب، أو تعلقت بالبحث عن الحقيقة في قضية أو حادث، تنأى بطبيعة ذلك السعي وهذا البحث عن كل ما هو راحة أو طمأنينة أو سعادة، بل نجد الراحة والسعادة في بلوغ ما تسعى إليه، ولا تطمئن إلا حين تبلغه.

هكذا.. توّصل تولستوي بعد التأمل والتفكير والاختبار، إلى نبذ فكرة الطمأنينة من جذورها، وكتب يقول: (التنبه الدائم، العمل،

الصراع، الحرمان بشتى أنواعه، هذه كلها شروط ضرورية لا يجوز لأحد أن يتجرأ حتى على الحلم بالخروج منها ولو للحظة واحدة.

علينا كي نعيش بشرف أن نتمزق، أن نسخط على أنفسنا، أن نقاتل، أن ننخدع، أن نبدأ ونهمل، ثم أن نعيد ونبدأ من جديد، وأن نحرم أنفسنا دوماً، الطمأنينة دناءة في الروح).

ذلك هو الاكتشاف الرائع العبقري الذي تفرد به تولستوي (الطمأنينة دناءة في الروح).

جوهر الحضارة في فكر تولستوي

أخذت المصاعب التي تعترض طريق هذا النبيل المتحفز للصلاح والإصلاح تتهاوى في سريرته، ولم يبق أمامه إلا أن يتابع مسيرته الروحية الصاعدة ما دام الهدف شيئاً غير الطمأنينة، وغير السعادة، وغير الرفاهية، فعمد إلى الكتابة، وهمه الأول والأخير أن يرشد غيره إلى الحقائق التي تكشف له لا جدوى من التعلق بالأوهام والقشور، ولا معنى للركض وراء السراب.

(الإنسان في حياته شبيه بغيمة ماطرة، تصب ماءها على المروج والغابات والحقول والبساتين والغدران والأنهار، هذه الغيمة تعيد النشاط والنضارة بتفجرها، إلى ملايين الأعشاب والسنابل والعواسج والأشجار ها هي الآن تنقى وتغدو شفافة، وعما قريب تتوارى هكذا تجري حياة إنسان طيب الذات يبذل العون للعديد من الأشخاص، ويجعل الحياة سهلة، ويوجه الآخرين في سبل الصلاح، ويدخل العزاء على القلوب، وحين يكون قد أعطى كل ما لديه وهو يحتضر،

ينطلق إلى ملكوت الأبد الروحي، اللامنظور).

إذا كانت هذه هي حال الإنسان الصالح، أي شبيه بغيمة تصب ماءها وتتوارى، فلن تكون الحضارة البشرية، في جوهرها، سوى ركام لأعمال تفيد الآخرين، أو تدفع عنهم الضرر.

لم يبق في هذا المناخ الفكري المشرق ببساطته، وصحوه، وائتلاف ديباجته – لم يبق للمتكبرين المتعالين، الساعين وراء الثروة والسلطة والزعامة مكان، ولن يتاح لهم بعد، أن يحظوا بشيء من الاحترام.

وأدرك هؤلاء، من خلال نياتهم الدفينة، واليهود على رأسهم، فداحة الخطر المحدق بآمالهم في ذلك الجو الذي خيم بانتشار هذه الأفكار، وراحوا يحرضون القيصر وزبانيته على اتخاذ الإجراءات القامعة ضد تولستوي ومحبيه، وقد أصبح شبه معبود من جانب الشبيبة والمثقفين عامة.

كتب غوسيف يقول في دراسته حياة تولستوي وأعماله.

(.. واقترحت إدارة الصحافة الكبرى على لجان المراقبة والمراقبين عامة في تعميمها رقم ٣١١٩، أن لا تطبع ولا تنشر أي قصة للكونت لتولستوي، سواء تلك التي صدرت من قبل، أو التي يمكن أن يكتبها من بعد، دون إشارة مسبقة من الإدارة المومى إليها).

ليس من شأن هذه الإجراءات أن تحمل الكونت على التراجع، أو على الرد بالمثل، إذ كان أعقل من أن يهيج أو يضطرب، وإنما دفعته إلى تكثيف العمل الإيجابي الذي كان يقوم في إغاثة الملهوفين، والحدب على المساكين ومتابعة الخط الذي سار فيه.

وكانت زوجته الكونتيسة صوفيا، تحاول ما أمكنها المحاولة أن تتلافى نتائج الخلاف الذي نشب مع السلطة، ولكنها لم توفق إلى شيء من ذلك، واستمرت رغم إخفاقها تتابع رأب الصدع، وإطفاء النار، مما أفرغ صبر الكونت، وعزم على هجر أسرته ومنزله، والعيش مع الفلاحين فكتب إليها، قبل مغادرة البيت، وكانت نائمة.

(وداعاً يا عزيزتي صوفيا، ليكن الله في عونك، الحياة ليست مزحة وليس لنا الحق في مفارقتها بملء إرادتنا، ولا أن نقيسها بمدتها، فهذا شيء غير معقول أيضاً، ربما كانت الأشهر التي قدر لنا أن نعيشها بعد، أهم من السنوات التي عشناها من قبل، وعلينا أن نحيا فيها ملياً).

رأيه في قضية السلام

لم تشغل قضية السلام أحداً في القرن الماضي بمقدار ما شغلت تولستوي، فهو لم يعالجها كموضوع سياسي، ولا كمطمح فلسفي، بل كضرورة حيوية للناس، كل الناس، وكان يزيد في إلحاحها، وضراوة إلحاحها عليه ترابط التفكير فيها بناحية أخلاقية، هي الصدق مع الذات، فالذي يكذب نفسه لا يمكن أن يكون صادقاً مع غيره.

هذا النوع من الصدق، أي مع الذات، غير متوافر في ظل المنازعات والمطامع والمخاوف والدعايات التي تعج بها المجتمعات الحديثة، ولا أسهل من ادعاء حسن النية، والانطواء على الرغبة في السلام، حتى مع القيام عملياً بما يناقض السلام ويقوضه، ولنا في سلوك إسرائيل

في هذه الأيام أوضح دليل على صحة ذلك، غير أن المشكلة هذه كانت تزداد تعقّداً في نظر تولستوي، بما يضفي عليها من عمق، حين يتطلب أشياء لا سبيل إلى التحقق من توافرها، تأمل هذا القول:

(أريد أن يكف حب السلم عن أن يكون تطلعا خجولاً من جانب الشعوب التي أرعبتها فظائع الويلات الناشئة عن الحرب، وأن يصبح مطلباً لا يثنى ولا ينثني، لكل وجدان، حي، شريف).

هذا التشدد في الاحتياط، أو هذا العمق في نشدان السلام، جعله أقدر من غيره، من كل معاصريه على فهم المستقبل، إذ كتب في يومياته، عند حلول العام الأول من هذا القرن، يبين أن الإنسانية معرضة لحروب مقبلة، ربما تأتي على ٩٩ بالمئة من سكان الأرض، وقد أضاف إلى هذه النبوءة العجيبة الغريبة، أن ذلك على هوله، لن يعيد الأغنياء إلى صوابهم!!

يجب أن لا ترتبط الدعوة إلى السلام، في رأي تولستوي، بالتخويف من فظائع الحرب، لأن السلام القائم على الخوف ينقل الحرب إلى داخل النفس ويؤدي في نهاية المطاف، إلى تقويض النفس أو إماتتها، على نحو ما ينتهي إليه نشدان الطمأنينة من تجمد وركود.

صلته بالفن

(أرجو ورثتي بعد وفاتي أن يعطوا الأرض للفلاحين، وينقلوا مؤلفاتي جميعها، لا التي أعطيتها من قبل فحسب، بل برمتها دون استثناء، إلى دائرة الأملاك العامة).

هذا ما ورد في آخر وصية كتبها تولستوي، وفيها إشارة واضحة إلى اعتبار مؤلفاته ملكاً للعموم!

والواقع أن فنون الأدب جميعها مما لا يمكن الاستئثار به، أو اعتبارها وقفاً، على فئة، حتى ولو كانت فئة أهل الفن والأدب.

وكان تولستوي في مستهل اشتغاله بالكتابة، قد وضع قصة حاول فيها أن يوضح الصلة بين الفعاليات الفنية والقوى المدمرة، وبها تحدث عن قوقازي أحاط به أعداؤه من كل جانب، ولم يجد منهم مهرباً، فراح يغني.. ويغني.. ثم رمى بنفسه على خنجره!

السؤال الذي ما انفك يراود ذهن تولستوي: ما هو الفن؟ أفضى به أخيراً إلى وضع كتاب بهذا العنوان.

هنالك علاقة بين الحياة والفن لا سبيل إلى إنكارها، يشعر بها حتى الأطفال ولا يملكون الإفصاح عنها، ولكن إقبال الأوروبيين والأميركيين على التقنيات والصناعات، والسياسات، وانصرافهم إلى تحصيل وسائل القوة والنفوذ، وانعدام تفكيرهم في السلم وتحقيقه، أدى إلى عزل الحياة عن الفن، وبالتالي عن الجمال الحقيقي في النفس والسلوك، وكان الثمن تلك الأمراض العصبية والعقلية والنفسية التي فاقت كل حد في فتكها وانتشارها. وقد أدى تعلق تولستوي بالفن، ومن ثم بجمال النفس وقوتها، إلى حمله على قطع علاقته بالماضي، ساعة هجر منزله وأسرته، متغلباً على كل عاطفة تشده إليها.

وتلقى المهاتما غاندي رسالةً من تولستوي وصلته بعد وفاته، فوجه جوابه عنها إلى تشرتكوف. ووجهت أرملته رسالة إلى القيصر نقولا

الثاني، تخبره فيها أنه ترك لها سبعة أولاد، وخمسة وعشرين حفيداً لا معيل لهم، وطلبت أن تشتري الدولة ضيعته باسنايا بوليانا (مهد الرجل العظيم ولحده) لتتمكن من تأمين النفقات الباهظة التي تترتب عليها. طلب ورثته أول ما طلبوا، مبلغ مليوني روبل، ثم نزلوا إلى ٥٠٠،٠٠٠ ولكن التخمين الرسمي رسا على ١٥٠،٠٠٠، ولم يوافق القيصر إلا على نفقة الأرملة وحدها.

ذلك ما كان من تقدير الفن في عهد القياصرة.

تعاطفه مع المحرومين في الشرق

إن تفكير تولستوي بمصير الإنسانية، واهتمامه بالعالم المعاصر له، حيث تناضل الشعوب المظلومة في سبيل مستقبل أفضل، قد دفعاه، مراراً وتكراراً، إلى الالتفاف نحو الوطن العربي، فهذه المنطقة اجتذبته بماضيها المجيد، وبحضارتها الغنية العريقة، من جهة، وحاضرها المرير الحافل بالصراع من أجل الحرية والاستقلال من جهة أخرى، ففي تلك الأيام كان الوطن العربي يرزح كله تحت النير الأجنبي، وقد أعار تولستوي اهتماماً كبيراً لانتفاضات الفلاحين والحرفيين التي اندلعت في بعض أقطار الوطن العربي وتركيا وإيران.

وكانت اتصالات تولستوي المباشرة بالغرب أقل منها برجالات الفكر والأدب في الهند والصين واليابان، ومع ذلك، كان في البلدان العربية أناس التجؤوا إلى تولستوي طلباً للنصح والمساعدة، وكانوا يلقون منه التفهم والترحيب الكاملين.

مراسلته مع الإمام محمد عبده

ومن المفكرين العرب الذين أقام تولستوي علاقات شخصية معهم مفتي مصر الإمام محمد عبده، وكان الإمام قد بعث رسالة إلى تولستوي عن طريق الناقد الفني الإنكليزي سيدني كوكريل، ولا تزال هذه الرسالة مفقودة حتى الآن، ولكن يتبين من رسالة تولستوي الجوابية أن مفتي الديار المصرية تحدث في رسالته عن الأسس الدينية والأخلاقية لحركة النهضة الإسلامية التي كان يتزعمها، وأنه التمس من الأديب العالمي الدعم والتشجيع، أما تولستوي فقد عرض، في رسالته الجوابية، جوهر آرائه الفلسفية والاجتماعية، وأعرب عن سروره بالتعارف مع المفكر الإسلامي البارز، الذي بدا له أن يشاطره مثله الأخلاقية، وأكد تولستوي في رسالته هذه أنه (بمقدار ما تتشبع الأديان بالعقائد الجامدة والمعجزات والخرافات، يزداد تفريقها للناس، بل وإثارتها للخصام والعداء بينهم، في حين أنه كلما ازدادت الأديان بساطة ونقاوة اقتربت باتجاه هدف الإنسانية الأمثل – (الوحدة الشاملة) اقتراباً أشد.

وفي معرض جوابه على بعض آراء محمد عبده، التي لم يوافق عليها الكاتب الروسي، يشجب تولستوي شجباً حاداً المحاولات التي كانت تقوم بها الكنيسة المسيحية في الشرق والغرب، لإحياء الأوهام والاعتقادات القديمة في صياغات وقوالب جديدة.

تأثيره على الأدباء العرب

إن المقالات المختلفة عن تولستوي، التي كانت تظهر، بين حين وآخر، في الصحف والمجلات العربية قد ساهمت بقسط وافر في تعريف القارئ العربي على مؤلفات الكاتب الروسي العظيم وآرائه السياسية والدينية والتربوية الفلسفية، كما تجدر الإشارة إلى أن معظم الترجمات العربية لمؤلفات تولستوي كانت ترفق بمقدمات حول الكاتب، منها – على سبيل المثال – مقدمة الخانجي لمجموعة (عجائب الخيال)، والمقدمة التي كتبها عصام الدين حفني ناصيف لمسرحية (والنور يسطع في الظلام) ومقالة (سلامة موسى) ثلاثة كتاب روس: دوستويفسكي وتولستوي وغوركي، التي نشرتها مجلة الهلال عام (١٩٢٨) ومقالة سعد خدري (تولستوي) التي نشرتها مجلة (المقتطف) (عام ١٩٤٥) ومقدمة الدكتور جورج حنا للطبعة البيروتية لرواية (الحرب والسلام) (عام ١٩٥٤)، كما ظهرت عدة مقالات حول تولستوي في مجلات (الحديث) و(المقتطف) و(لغة العرب) وغيرها من المجلات العربية.

وينبغي التنويه بأهمية مجموعة المقالات التي ظهرت عن تولستوي في عام ١٩٢٨، بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده، فقد قام بإصدار هذه المجموعة عدد من الشخصيات الأدبية والفكرية في سورية ولبنان، وعلى راسها ساطع الحصري، وهي تحتوي على ترجمة لمقالات يعرض فيها تولستوي آراءه في المسائل الأخلاقية والدينية، وترجمة لمقتطفات من أقواله المأثورة، أخذت عن كتاب (طريق الحياة)، كما ضمت

المجموعة بعض القصائد والمقالات لأدباء عرب عن تولستوي.

في مطلع عام ١٩٦١ أصدرت مجلة (الطريق) البيروتية عدداً خاصاً عن تولستوي بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة الكاتب الروسي العظيم، وقد اشتمل هذا العدد على مقالات لميخائيل نعيمة وسعيد عقل وفؤاد افرام البستاني وجورج حنا، وغيرهم من الشخصيات الثقافية البارزة، عبّر مؤلفوها عن تقديرهم العميق لتولستوي.

اطلاعه على الأدب العربي

كان اهتمام تولستوي بالحضارة العربية والأدب العربي اهتماماً دائباً لا يفتر ولا ينضب، فقد اطلع على الحياة العربية، وتعرف على الفولكلور العربي والأمثال العربية، وقرأ ما كان قد ترجم إلى الروسية من مؤلفات الأدب العربي، بما في ذلك (رسالة الغفران) للمعري، شغف تولستوي، منذ طفولته، بالحكايات والقصص العربية، مثل (علاء الدين والمصباح السحري) و(علي بابا والأربعين حرامي) و(الأمير قمر الزمان)، وكان قد قرأ في شبابه، حكايات أخرى من (ألف ليلة وليلة) التي ترجمت للروسية عن الفرنسية في القرن التاسع عشر، وتأثر بها أيما تأثر، ونشر للأطفال بعضاً منها بأسلوب مبسط ولغة جذابة، هنا تجدر الإشارة إلى أن هذا الاهتمام بالأمثال والحكم والقصص العربية لم يكن جديداً، فقد لعبت دوراً كبيراً في الحياة الأوروبية الروسية منذ القرن الثامن عشر، وفي السبعينات من القرن التاسع عشر نشر تولستوي قصصاً للأطفال مقتبسة من الأدب العربي، كان تولستوي يحافظ على تسلسل الأحداث والحبكة

القصصية والخاتمة والعبرة، ويكتفي بصياغة القصة بأسلوب روسي، مستبدلاً الأسماء العربية بأسماء روسية، وبفضل اللغة الجذابة والسهلة اكتسبت الحكايات العربية شهرة كبيرة، وصادفت انتشاراً واسعاً لدى القراء الروس.

لقد انعكس تأثر تولستوي بالقصص والحكايات العربية على أعماله الأدبية، حيث يرد ذكر الكثير منها في مؤلفاته وعلى لسان أبطاله، وأدخل تولستوي عدداً كبيراً من الأمثال والحكم والأقوال العربية المأثورة في مجموعاته الأخيرة: (من الحكم والأمثال الشعبية)، كما كان يأخذ الكثير من الأمثال العربية ويصيغها على شكل حكايات وقصص، محافظاً على مغزى هذه الأمثال والعبرة منها، وبفضله لقيت الأمثال والحكم العربية انتشاراً واسعاً بين جماهير القراء في روسيا.

ومما هو جدير بالذكر أن تولستوي قد اختار الحكاية العربية المعروفة (الملك والقميص) وصاغها (بالروسية) قصة طريفة موجهة للصغار، ومن المصادر العربية والتاريخ العربي القديم استقى تولستوي حكايته المعروفة (الملك الآشوري أسر حدون) التي كتبها في عام ١٩٠٣.

ودرس تولستوي تاريخ العرب القديم دراسة متعمقة، فقد وجدت في مكتبته كتب ومصادر تاريخية كثيرة عن العرب، عليها إشارات وملاحظات بخط يده، تدل على دراسة لهذه المصادر واهتمامه الكبير فيها.

وإلى جانب المراجع التاريخية احتوت مكتبته على مؤلفات نادرة حول الأدب والفولكلور العربي، كانت قد صدرت إلى ذلك الحين في روسيا (حكايات سورية) وكتاب ابن علي (حكايات عربية) وغيرها، وفي رسائله لأصدقائه أشار تولستوي مراراً إلى القصيدة العربية الرائعة التي قرأها في كتاب (قصص وأساطير المعلم جلال الدين).

مكانة تولستوي عند العرب

وكان للاحتفال بالذكرى الخمسين لوفاة تولستوي صدى واسع في الوطن العربي، إذ ألقيت المحاضرات وأقيمت المهرجانات، وعقدت الاجتماعات المكرسة لهذه المناسبة، ففي المنتدى الأدبي بالقاهرة تحدث الناقد المصري شوقي السكري فأشار إلى أن واقعية تولستوي قد تركت أثراً كبيراً في الأدب العربي، وفسر المحاضر أسباب هذا التأثير بالتشابه في العديد من المشاكل الحياتية التي واجهت الشعبين الروسي والعربي، فكلاهما خضع لفترة طويلة من العبودية، وهما شعبان زراعيان بالدرجة الأولى.

وكان معظم الفلاحين في روسيا والوطن العربي محرومين من الأرض لقرون طويلة، وكان كل منهما يعاني من الاضطهاد على أيدي أقلية ضئيلة من أبناء جلدته، من جهة، والدول الغربية الاستعمارية من جهة أخرى، لذلك نلاحظ أن موضوع الأرض يشغل مكاناً بارزاً في آداب الشعبين معاً.

ومن الشخصيات الأدبية العربية التي تأثرت بفلسفة تولستوي وآرائه الاجتماعية والسياسية المفكر والكاتب الروائي فرح أنطوان – إذ

كان يلجأ أحياناً في نقاشه مع معارضيه إلى مقالات وأعمال تولستوي لدعم أفكاره وحججه.

لقد شغل تولستوي في الأدب العربي مكاناً لم يشغله أحد غيره من الكتاب والمفكرين الأجانب، وكتب عنه كبار أدبائنا العرب في مصر وسورية ولبنان والعراق مقالات قيمة، ونظم بعضهم قصائد رائعة تكريماً له، ويمكن أن نذكر على سبيل المثال، ما كتبه عنه المنفلوطي والريحاني أثناء حياته، كما رثاه أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وجميل الزهاوي بأشعار رائعة.

فقد كتب المنفلوطي مقالة مؤثرة في رثاء تولستوي صاغها بأسلوب المراثي العربية التقليدية، في هذه المقالة يصور المنفلوطي تولستوي ثائراً ساخطاً يفضح أولى الأمر الأربعة – القيصر والإقطاعي والكاهن والعسكري، ونظم أحمد شوقي (حواراً شعرياً بين أبي العلاء المعري وليف تولستوي حول الظلم والشر وطباع الناس)، ونظم قصيدة أخرى بمناسبة وفاة الكاتب الروسي العظيم صاغها على نمط القصائد العربية الكلاسيكية.

وعبّر عمر فاخوري عن احترامه وتقديره العميقين للمفكر الروسي العظيم، وفي نقاشه مع أنصار الأدب الانحطاطي كان يستشهد بأعمال تولستوي ومؤلفاته.

وكان لتعرف ميخائيل نعيمة على الأدب الروسي، وبخاصة أعمال تولستوي، دور كبير في تطوره الأدبي، ففي كتابه (أبعد من موسكو وواشنطن) يقول نعيمة: (... في كتابات تولستوي عرفت كيف يهدر

الدم الروسي أنهاراً في سبيل الدفاع عن أرضه، وأي الآلام الجهنمية هي الآلام التي تجرها الحروب، وعرفت كذلك نزعة الروح الروسية إلى السلم والصفح والمحبة، وعدم مقابلة الشر بالشر... حتى أن (ياسنايا بوليانا).. بلدة تولستوي - باتت عندي منارة أستأنس بنورها أيام كنت أتلمس طريقي في مهامه الخير والشر والحياة والموت... ولشد ما هزني خبر اختفاء تولستوي الفجائي في بيته في آخر أيامه، إذ أنني وجدت فيه دعامة لإيماني المتداعي بقدرة الإنسان الفاهم والمخلص لنفسه على التملص من أحابيل الدنيا وفخاخها، والترفع عن زخارفها ومفاتنها، وعلى الوعظ والتعليم بالقدرة والمثال أكثر من القلم واللسان).

مرثية تولستوي – أحمد شوقي

(تولستوي) تجري آية العلم دمعها ... عليك ويبكي بائس وفقير

وشعب ضعيف الركن زال نصيره ... وما كل يوم للضعيف نصير

ويندب فلاحون أنت منارهم ... وأنت سراج غيبوه منير

يعانون في الأكواخ ظلماً وظلمة ... ولا يملكون البث وهو يسير

تطوف كعيسى بالحنان وبالرضى ... عليهم وتغشى دورهم وتزور

ويأسى عليك الدين إذ لك لبه ... وللخادميه الناقمين قشور

أيكفر بالإنجيل من تلك كتبه ... أناجيل منها منذر وبشير

ويبكيك ألف فوق (ليلى) ندامة ... غداة مشى (بالعامري) سرير

تناول ناعيك البلاد كأنه ... يراع له في راحتيك سرير

وقيل توفى (الشيخ) في الأرض هائماً ... وقيل (بدَير) الراهبات أسير

وقيل قضى لم يغن عنه طبيبه ... وللطب من بطش القضاء عذير

إذا أنت جاورت (المعري) في الثرى ... وجاور (رضوى) في التراب (ثبير)

وأقبل جمع الخالدين عليكما ... وغالى بمقدار النظير نظير

جماجم تحت الأرض عطرها شتى ... جناهنّ مسك فوقها وعبير

بهن يباهي بطن (حواء) واحتوى ... عليهن بطن الأرض وهو فخور

فقل يا حكيم الدهر حدث عن البلى ... فأنت عليم بالأمور خبير

أحطت من الموتى قديماً وحادثاً ... بما لم يحصل منكر ونكير

طواها الذي يطوي السماوات في غد ... وينشر بعد الطي وهو قدير

تقادم عهدانا على الموت واستوى ... طويل زمان في البلى وقصير

كأن لم تضق بالأمس عني كنيسة ... ولم يؤوني ديرٌ هناك طهور

أرى راحة بين الجنادل والحصى ... وكل فراش قد أراح وثير

نظرنا بنور الموت كل حقيقة ... وكنا كلانا في الحياة ضرير

إليك اعترافي لا لقس وكاهن ... ونجواي بعد الله وهو غفور

فزهدك لم ينكره في الأرض عارف ... ولا متعال في السماء كبير

بيان يشم الوحي من نفحاته ... وعلم كعلم الأنبياء غزير

سلكت سبيل المترفين ولذّ لي ... بنون ومال والحياة غرور

أداة شتائي الدفء في ظل شاهق ... وعدة صيفي جنة وغدير

ومتعت بالدنيا ثمانين حجة ... ونضّر أيامي غنى وحبور

ونكر كضوء الشمس في كل بلدة ... ولا حظ مثل الشمس حين تسير

فما راعني إلا عذارى أجرنني ... ورب ضعيف تحتمي فيجير

أردت جوار الله والعمر منقض ... وجاورته في العمر وهو نضير

صباً ونعيم بين أهل وموطن ... ولذات دنيا كل ذاك نذور

بهن وما يدرين ما الذنب خشية ... ومن عجب تخشى الخطيئة حور

أوانس في داج من الليل موحش ... ولله أنس في القلوب ونور

وأشبه طهر في النساء بمريم ... فتاة على نهج المسيح تسير

◆ ◆ ◆

تسائلني هل غيَّر الناس ما بهم ... وهل حدثت غير الأمور أمور

وهل آثر الإحسان والرفق عالم ... دواعي الأذى والشر فيه كثير

وهل سلكوا سبل المحبة بينهم ... كما يتصافى أسرة وعشير

وهل آن من أهل الكتاب تسامح ... خليق بآداب الكتاب جدير

وهل عالج الأحياء بؤساً وشقوة ... وقلَّ فساد بينهم وشرور

فتم لنظر وانت للمالئ الأرض حكمة ... أالجدى نظيم أم أفاد نثير

أناس كما تدري ودنيا بحالها ... ودهر رخيٌّ تارة وعسير

وأحوال خلق غابر متجدد ... تشابه فيها أول وأخير

تمر تباعاً في الحياة كأنها ... ملاعب لا توخى لهن ستور

وحرص على الدنيا وميل مع الهوى ... وغش وإفك في الحياة وزور

وقـام مقـام الفـرد في كـل أمـة ... علـى الحـكـم جـم يـعـتبـد غـفـير

وحـوّر قـول النـاس مـولى وعبـده ... إلى قـولهم مـستأجر وأجـير

وأضحى نفوذ المال لا أمر في الورى ... ولا نهـى إلا مـا يـرى ويـشير

تـساس حكـومـات بـه وممالـك ... ويـذعن اقيـال لـه وصـدور

وعصر بنوه في السلاح وحرصه ... على السلم يجري ذكرها ويدير

ومـن عجـب في ظلـها وهـو وارف ... يـصادق شـعباً آمنـاً فـيغير

ويأخذ من قوت الفقير وكسبه ... ويزوي جيوشاً كالحصى ويمير

ولما استقل البر والبحر مذهباً ... تعلـق أسـباب الـسماء يطـير

من هو محمد؟

للفيلسوف تولستوي

(إن محمداً هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس.

ولد النبي محمد في بلاد العرب سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح من أبوين فقيرين وكان في حداثته راعياً، ومال منذ صباه إلى الانفراد في البراري والأمكنة الخيالية، حيث كان يتأمل الله وخدمته.

إن العرب المعاصرين له عبدوا أرباباً كثيرة وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية، ومع تقدم محمد في السن كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب.

وقد ازداد هذا الاعتقاد في نفس محمد، حتى قام في نفسه أن يدعو أمته ومواطنيه إلى الاعتقاد الراسخ في فؤاده، وقد دفعه عامل داخلي إلى أن الله اصطفاه لإرشاد أمته وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة،

وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادي باسم الواحد الأحد بحسب ما أوحي إليه ومقتضى اعتقاده الراسخ.

وخلاصة هذه الديانة التي نادى بها محمد، هي أن الله واحد لا إله إلا هو، ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة وان الله رحيم عادل، وأن مصير الإنسان النهائي متوقف على الإنسان نفسه فإذا سار حسب شريعة الله واتم أوامره واجتنب نواهيه فإنه في الحياة الأخرى يؤجر أجراً حسناً وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب في الحياة الأخرى عقاباً شديداً وإن كل شيء في هذه الدنيا فان زائل، ولا يبقى إلا الله ذو الجلال، وإنه بدون الإيمان بالله وإتمام وصاياه، لا يمكن أن تكون حياة حقيقية، وإن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضاً، ومحبة الله تكون في الصلاة، ومحبة القريب تقوم في مشاركته في السراء والضراء ومساعدته والصفح عن زلاته، وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسانية، والابتعاد أيضاً عن الملذات الأرضية وأنه يتحتم عليهم أن لا يخدموا الجسد ويعبدوه، بل يجب عليهم أن يخدموا الروح وأن يزهدوا في الطعام والشراب وأنه محرم عليهم استعمال الأشربة الروحية المهيجة، ومحتم عليهم العمل والجد وما شابه ذلك.

ومحمد لم يقل عن نفسه انه نبي الله الوحيد بل اعتقد أيضاً بنبوة موسى والمسيح، وقال أن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم بل يجب عليهم أن يتمموا وصايا أنبيائهم.

وفي سنين دعوة محمد الأولى احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب

الديانة القديمة شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته.

وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب بتواضعهم وزهدهم في الدنيا وحب العمل والقناعة وبذلوا جهدهم لمساعدة إخوانهم في الإيمان لدى حلول المصائب بهم.

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراماً عظيماً ويعظمون قدرهم وغدا عدد المؤمنين يتزايد يوماً فيوم.

غير أن أصحاب الغيرة من أنصار النبي كانوا ينظرون إلى الوثنيين المحيطين بهم وفسادهم بعين الغضب والاستياء، فدفعتهم غيرتهم على الحق إلى حمل النبي على أن يرغم الناس بالقوة على الإسلام، والاعتراف بوحدانية الله، ومع أن هؤلاء الأنصار لم يبيحوا سفك الدماء للحصول على الأموال أو غيرها من متاع الدنيا، ولكنهم أباحوا الحرب في سبيل الإيمان، زاعمين أنهم بذلك يرضون الله بإدخال الناس في دينه القويم بالقوة – أولئك الذين أصروا على البقاء في الضلال ولم يقتنعوا بدعوة النبي.

إن نشر الإسلام بطريق القوة لم يرق البوذيين والمسيحيين المشهورين بالوداعة ولكن مع ذلك فإن المسلمين اشتهروا في صدر الإسلام بالزهد في الدنيا الباطلة، وطهارة السيرة، والاستقامة والنزاهة، حتى أدهشوا المحيطين بهم بما هم عليه من كرم الأخلاق ولين العريكة والوداعة.

ومن فضائل الدين الإسلامي أنه أوصى أخيراً بالمسيحيين واليهود، ولا سيما قسوس الأولين، فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم، حتى اباح هذا الدين لأتباعه بالتزوج من المسيحيات واليهوديات مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن ولا يخفى على أصحاب البصائر النيرة ما في هذا من التساهل العظيم.

ومما لا ريب فيه أن النبي محمداً من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتفضل عيشة الزهد ومنعها عن سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام).

الأحاديث النبوية

١ ـ اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك

٢ ـ قل الحق وإن كان مراً

٣ ـ انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل يا رسول الله انصره مظلوماً، فكيف انصره ظالماً؟ فقال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه.

٤ ـ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئةٌ مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بتراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة.

٥ ـ اللهم أحيني مسكيناً وتوفني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين.

٦ ـ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

٧ ـ حُفَّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات.

٨ ـ الحلال بيِّن والحرام بيِّن.

٩ ـ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

١٠ ـ سأل رجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي الإسلام خير قال: أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف.

١١ ـ لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب.

١٢ ـ في الحديث القدسي: قال الله تعالى:

كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فعرفوني.

١٣ ـ أفضل الصدق إصلاح ذات البين وحفظ اللسان.

١٤ ـ أيما امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت بقوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية.

١٥ ـ الجليس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من جليس السوء، وإملاء الخير خير من السكوت والسكوت خير من إملاء الشر.

١٦ ـ زنا العين النظر، وزنا النفس المنطق والنفس تتمنى وتشتهي

١٧ ـ من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً.

١٨ ـ القبر أول منزلة من منازل الآخرة.

١٩ ـ أفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل.

٢٠ ـ إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه.

٢١ ـ إن الله تعالى يحب أن يرى عبده ساعياً في طلب الحلال.

٢٢ ـ من يصبر على الرزية يعوضه الله.

٢٣ ـ آفة الدين ثلاثة فقير فاجر، وإمام جائر، ومجتهد جاهل

٢٤ ـ إنما النساء شقائق الرجال.

٢٥ ـ آفة العلم النسيان وإضاعته أن تحدث به غير أهله

٢٦ ـ الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة.

٢٧ ـ الكذب مجانب الإيمان.

٢٨ ـ اعقلها وتوكل.

٢٩ ـ لا عبادة كالتفكر.

٣٠ ـ حبك للشيء يعمي ويصم.

٣١ ـ لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

٣٢ ـ أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

٣٣ ـ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: لله إصلاح ذات البين.

٣٤ ـ إن أول خلق خلقه الله عز وجل العقل، فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر، فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ

منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب.

٣٥ ـ ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب.

٣٦ ـ ارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس

٣٧ ـ إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال فلينظر إلى من هو أسفل منه.

٣٨ ـ دخل عمر على رسول الله وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا نبي الله لو اتخذت فراشاً فقال مالي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح وتركها

٣٩ ـ خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً، من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله الله عليه

٤٠ ـ جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال إني أحبك قال أنظر ما تقول، فقال إني والله لأحبك ثلاث مرات، قال إن كنت صادقاً فاعدُ محفافاً. إلى الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه.

٤١ ـ ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك.

٤٢ ـ امش ميلاً عد مريضا، وامش ميلين أصلح بين اثنين وامط الأذى عن الطريق فإنه لك صدقة.

٤٣ ـ اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وإن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ولا يحبها الله وإن أمرأ اشتمك وعّيرك بأمر هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ودعه يكون وباله عليك وأجره لك، ولا تسبنَّ أحداً.

٤٤ ـ قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقى، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي أترون هذه طارحة ولدها في النار قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها.

٤٥ ـ من ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله وحرم عليه ريح الجنة.

٤٦ ـ قال النبي وحوله عصابة من أتباعه: تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله.

٤٧ ـ سيأتي زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا رسمه، تنزع الرحمة من قلوبهم وتقل مكاسب الحلال ويكثر الحرام.

٤٨ ـ عُفّوا تَعفّ نساؤكم.

٤٩ ـ علم لا ينفع ككنز لا ينفق منه.

٥٠ ـ ليس من أخلاق المؤمن التملق ولا الحسد إلا في طلب العلم.

٥١ ـ زين الله السماء بثلاث: السماء والقمر والكواكب، وزين الأرض بثلاث، بالعلماء والمطر وسلطان عادل.

٥٢ ـ العلم إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء

٥٣ ـ العالم إذا خرج من الدنيا كمصباح يخرج من بيت مظلم

وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب.

٥٤ ـ يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين، قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين، قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيت لوجدت ذلك عندي.

٥٥ ـ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لأخراك كأنك تموت غداً.

٥٦ ـ من كذب فجر، ومن فجر كفر، ومن كفر دخل النار

دعــاء الـنـبـي

يا حـي يـا قـيـوم لا إلـه إلا أنـت برحمتك أستغيث اغفـر لـي ذنـوبي وأصلح لي شأني وفرج لي همي برحمتك.

اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب العظيمة إلا الرب العظيم، احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك عليّ فلا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمت بها علي قلّ لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قلّ لك عندها صبري، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، ويا ذا النعماء التي لا تحصى عدداً، نجني مما أنا فيه، وأعنّي على ما أنا عليه مما قد نزل بي بجاه وجهك الكريم.

الحجاب والزواج

راي تولستوي فيهما

(إن السبب في مسألة الطلاق التي تشغل الآن الرأي العام في أوروبا، هو التمدن الذي لم يقتبس الإنسان منه سوى الحمق والخلاعة، هذا هو السبب الحقيقي ازدياد الطلاق نمواً كل يوم، فلا يمضي على زواج امرأة برجل ردح من الزمن حتى تقول له حاذر أن أتركك وأمضي إلى حال سبيلي، سرى ذلك من الربوع العالية في المدن إلى أكواخ الفلاحين، فالفلاحة لأقل شيء تقول لزوجها خذ قمصانك وسراويلك لأني تاركة لك وذاهبة مع حبيبي يوسف الذي يفوقك حسناً وبهاء.

هذا لأن المرأة خلعت ثياب الحشمة واحترام الزوج وخرجت من دائرة الخضوع له، تلك الواجبات التي ينبغي أن تبقى عليها حتى انقضاء الأجل.

على الرجل أن يكد ويشتغل وما على المرأة إلا أن تقيم في البيت لأنها زوجة أو بعبارة أخرى لأنها إناء لطيف سريع الانثلام والانكسار.

على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولا يطلق لها العنان، بل يحجبها

في البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة).

ثم ختم هذه السطور بمثل روسي وهو:

(لاتركن إلى الفرس في الغيط وأركن للمرأة في البيت)

الحب والزواج

وقال:

(إن دوام الحب بين الزوجين من رابع المستحيلات، إنه قد يكون حب ولكن إلى وقت قصير جداً، ثم لا يدوم إلا في الروايات فقط، وأما بين الناس فعديم الاستقرار في قلبين معاً، وكل رجل متزوجاً كان أو غير متزوج إذا اجتازت به غادة فتانة فأكثر ما يكون منه أن يوجه إليها التفاتة، وقد يبذل بعضهم كل مرتخص وغال بعد ذلك في سبيل الوصول إليها، والمرأة من هذا القبيل كالرجل فإنها تجتهد للاتصال بأكثر من واحد دائماً وما دام يمكنها هذا الاتصال فهي نائلة أربها لا محالة.

إذا قلنا أنه يمكن للمرأة أن تحب زوجها طول الحياة، فما مثلنا في ذلك الأمثل من قد يوقد شمعة وهو يعتقد أنها تدوم مضيئة طول الدهر.

إن الزواج أصبح في عصرنا هذا بيتنا محض خداع وغش، ولكنه لا يزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه سراً من أسرار الدين

كالمسلمين والصينيين والهنود، أما نحن فلا نرى فيه غير تلك المقارنة الحيوانية).

الزوجان يخدعان الناس بأنهما يعيشان معاً في ارتباط عائلي حقيقي بالزواج، يظهر كذلك أمرهما في الخارج لكل من رآهما وأنهما سيبقيان في تمام الوفاق ما دامت الحياة، والحقيقة أنهما يعيشان على قاعدة تعدد الزوجات، ولكن من الجانبين وبهذا التكافؤ قد يتفقان زمناً، وعلى الأكثر أن كليهما في الشهر الثاني يهدد صاحبه بالطلاق، وقبلما يتمكنان من وسائله، وعن ذلك تصدر الأفكار الخبيثة الجهنمية التي ينجم عنها إطلاق الرصاص انتحاراً أو قتلاً أو دس السم وما أشبه.

الفساد وانتشاره

وقال:

وتفسد أخلاق الشباب في المدرسة لأن جميع رفاقه فسدة الأخلاق يصحبونه معهم إلى أندية الرجس، فيفقد طهارته وعفته من حيث لا يدري أن في هذا ما يخالف الآداب والفضيلة، تفسد أخلاق الشاب من أول نشأته لأنه لا يسمع من مرشديه أن الفسوق محرم بل بالعكس يسمع أن صحة الجسم تستلزم بعض الشيء وجميع المحيطين به يقولون أن الوقوع شيء طبيعي قانوني مفيد للصحة وفكاهة الشباب الحلوة، لهذا كله لا يدرك الشاب أنه سائر في طريق الضلال بل يقطع الطريق الطبيعية التي يسير فيها كل صحبه وأفراد الوسط الذي يعيش فيه، فيبدأ بالفحشاء كما يبتدئ بشرب المسكر والتدخين.

وأنا أعرف أمهات كثيرات يعتنين بأمر أولادهن في هذا الطريق رعاية لصحتهم.

بقي على الشاب أمر واحد يخشى عاقبته من ارتكاب الموبقات وهو

العدوى من المرض المشهور، غير أن الحكومة التي تهتم بصحة رعاياها لم تدع مجالاً للخوف فإنها بهمه فائقة تعتني اعتناءاً تاماً بالمواخير، والأطباء كهنة أصنام العلم يراقبون المومسات لقاء أجور يتقاضونها وهم من جهة أخرى يفتون للشبان بضرورة الاجتماع ولو مرة في الشهر، مراعاة لقانون الصحة.

فهم على ذلك يرتبون سير الفحش ترتيباً مدققاً ويضبطون دوائره ضبطاً (محكما).

ليت الحكومة التي تهتم اهتماماً عظيماً بإزالة الزهري معالجة تستعمل جزءاً من مائة من ذلك الاهتمام في إزالة المومسات، فيصبح المرض إذ ذاك في خبر كان.

حفلات الرقص (البالو)

وقال:

يجري بيننا وتحت نظرنا من الأمور السافلة ما لا طاقة لذي ناموس وشرف على احتماله، يزورنا رجل لا نجهل من سيرته شيئاً فنستقبله أحسن استقبال وعندما يدخل قاعة الضيوف يجالس أختي أو ابنتي أو قرينتي حيث يتركني وشأني أو اتركه وشأنه، وربما أعرف من سلوكه وتصرفاته ما أعرف، فكان يلزم والحالة هذه أن أتقدم إليه عند قدومه وأتنحى به جانباً واقول له همساً اني يا صاح أعرف أحوالك، وأين تصرف لياليك، ومع من، فليس لك عندنا مكان لأن فتياتنا طاهرات.

هكذا كان ينبغي أن يفعل كل واحد منا، ولكنا نجري على العكس مما تقدم، فإذا اجتمعنا مع هذا الرجل في ليلة راقصة، كان له أن يرقص مع أختي أو ابنتي ويعانقها ويخاصرها، نراه بأعيننا ونشاهد حركاتهما معاص غدواً ورواحاً وميلاً واهتزازاً، ولا تشمئز

منه نفوسنا ، بل نتساءل إن كان حراً لنسعى في تزويجه بإحدى بناتنا ، ولو كان أثر المرض بادياً عليه.

الأزياء ونساء الطبقات العليا

وقال:

إننا لو أمعنا النظر في معيشة نساء الطبقات العليا كما هي من قلة الحياء والخلاعة، لا نجد ثم فرقاً بين البيت الذي يضمهن، ونادي مومسات مختلط.

ولكن الناس لا يوافقوني على كلامي هذا فأنا إذاً أقيم لهم برهاناً حسياً.

هم يقولون أن نساء هيئتنا الاجتماعية يعشن بحالة تخالف معيشة المومسات، وأنا أخالفهم في ذلك وأقول: إذا كانت النساء تختلف في حالة المعيشة الداخلية، فمن الحقائق المقررة أن ما يكون خارجاً منهن أثر المعيشة في الداخل وهذه يلزم أن تخالف معيشة المومسات من كل وجه، ولكن أنا لا أرى فرقاً كبيراً بين معيشة الفريقين في الخارج، قابلوا أيها الناس بين المومسات وبين نساء الطبقات العليا، تجدوهن متفقات في الهيئات والأزياء والروائح العطرة، وإعراء السواعد

والمناكب والصدور، ووضع الوسادة خلف الظهر، أينما جلسن، وأينما ركبن، وفي اقتناء أنفس الجواهر والحجارة الكريمة اللماعة وفي المراقص والغناء.

وكما أن المومسات يستعملن كل الوسائط الفعالة للغواية وجذبهم واستمالة النفوس حتى يصبو لهن كل راء، كذلك نساء الطبقات العليا يفعلن في وسطهن أهـ.

الأستاذ الإمام وتولستوي

كتب الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى الفيلسوف تولستوي واضع هذا الكتاب الخطاب الآتي فآثرت إثباته لجزيل فائدته وهو:

أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ووفقك على الغاية التي هدى البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم، ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعياً يبقى به ويربى جنسه، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك،

هادياً للعقول، كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون، كان مثلك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء، كان مدداً من عنايته للضعفاء الفقراء، وأن أرفع مجد بلغته، وأكبر جزاء نلته، على متاعبك في النصح والإرشاد، هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين، سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم، كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم.

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك، ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك، والسلام.

مرثية حافظ بك إبراهيم

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى   لمدحك من كتاب مصر كبير

ولست أبالي حين أرثيك بعده   إذا قيل عني قد رثاه صغير

فقد كنت عوناً للضعيف وإنني   ضعيف ومالي في الحياة نصير

ولست أبالي حين أبكيك للورى   حوتك جنان أو حواك سعير

فإني أحب النابغين لعلمهم   وأعشق روض الفكر وهو نضير

دعوت إلى عيسى فضجت كنائس   وهز لها عرش وماد سرير

وقال أناس أنه قول ملحد   وقال أناس أنه لبشير

ولولا حطام رد عنك كيادهم   لضقت به ذرعاً وساء مصير

ولكن حماك العلم والرأى والحجى   ومال إذا جد النزال وفير

إذا زرت رهن المحبسين[1] بحضرة   بها الزهد ثاو والذكاء مثير

وأبصرت أنس الزهد في وحشة الليل   وشاهدت وجه الشيخ وهو منير

وأيقنت أن الدين لله وحده   وأن قبور الزاهدين قصور

فقف ثم سلم واحتشم إن شيخنا   مهيب على رغم الفناء وقور

---

[1] يريد أبا العلاء المعري

وسائله عما غاب عنك فإنه | عليم بأسرار الحيارة بصير
يخبرك الأعمى وإن كنت مبصراً | بما لم تخبر أحرف وسطور
كأني بسمع الغيب أسمع كلما | يجيئ به أستاذنا ويحير
يناديك أهلا بالذي عاش عيشنا | ومات ولم يدرج إليه غرور
قضيت حياة ملؤها البر والتقى | فأنت بأجر المتقين جدير
وسموك فيهم فيلسوفاً وأمسكوا | وما أنت إلا محسن ومجير
سلوت عن الدنيا ولكنهم صبوا | إليها بما تعطيهم وتمير
حياة الورى حرب وأنت تريدها | سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تناحراً | وكدحاً ولو أن البقاء يسير
تحاول رفع الشر والشر واقع | وتطلب محض الخير وهو عسير
ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم | دليل على أن الإله قدير
ولم يبعث الله النبيين للهدى | ولم يتطلق للسرير أمير
ولم يعشق العلياء حر ولم يسد | كريم ولم يرج الشراء فقير
ولو كان فينا الخير محضاً لما | ادّعا إلى الله داع أن تبلج نور
ولا قيل هذا فيلسوف موفق | ولا قيل هذا عالم وخبير
فكم في طريق الشر خير ونعمة | وكم في طريق الطيبات شرور
ألم تر أني قمت قبلك داعياً | إلى الزهد لا يأوى إليّ ظهير

أطاعوا أبيكير وسقراط قبله ... وخولفت فيما أرتئي وأشير

ومت وما ماتت مطامع طامع ... عليها ولا ألقى القياد ضمير

إذا هدمت للظلم دور تشيدت ... له فوق أكتاف الكواكب

أفاض كلاماً في النصيحة جاهداً ... ومات كلانا والقلوب صخور

فكم قيل عن كهف المساكين باطل ... وكم قيل عن شيخ المعرة زور

وما صد عن فعل الأذى قول مرسل ... ولا راع مفتون الحياة نذير

المصادر

- أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية.
- الهلال السنة ٩ (١٩٠٠م) ٤٢٦ – ٤٢٩
- الهلال السنة ١٩ (١٩١١) ص ١٩٥ وما بعدها
- العربي، العدد ٢٣٩، مقال الدكتور جابر أبي جابر
- الشراع، العدد ٢١٥، مقال الأستاذ عبد اللطيف شرارة ٦٢ – ٦٣.
- (الشوقيات) ديوان أحمد شوقي
- ديوان حافظ إبراهيم
- الرسالة (السنة ١٩٤٧) ص ١٦٨ مقال الأستاذ محمود الخفيف
- المنار ج١ المجلد ١٦ (ص ٦٨).



الفهرس